وصفة حركة النَّفَس مع إنتاج الحرف إنّما هو بداية للمُشكلة القائمة عند المتقدّمين في حديثهم عن الضّاد، وكذا عند المحدّثين تبعاً لِمَن سبقهم.

صعوبة النطق بالضّاد:

يردد العُلماء أن الضّاد من أصعب[٢٦] الحروف في النُّطْقِ، وأنه لا يخرج من موضعه غيره من الحروف. قال ابن الجزري[٢٧]: «وليس من الحروف ما يَعْسُر على اللّسان مثله؛ فإن ألْسِنَة النّاس فيه مُختلفة، وقَلّ من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاءً، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاماً مُفَخّمة، ومنهم من يشمّه الزاي[٢٨]، وكل ذلك لا يجوز»، ثمّ حَذّر[٢٩] من قَلب الضّاد إلى ظاء، لاسيما فيما يشتبه بلفظ نحو: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾[٣٠]. يشتبه بقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾[٣١]، ثم قال: «وليُعمل الرياضة في إحكام لفظه خصوصاً إذا جاوره ظاء نحو ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[٣٢]، ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾[٣٣]...».

فقد صَوّر ابن الجزري في حديثه هذا أشكالاً مُنْحَرِفات عن سواء النُّطْق بهذا الحرف، ربما شاعت في زمانه، ولا يزال بعضها واقعاً إلى يومنا هذا، وكل أُولئِكَ شاهِدُ صِدْقٍ على عُسْرِ النُّطْقِ بهذا الحرف الذي يَسْتَتْبَعُ بالضرورة اضطراب الوَصْف.

السِّمَات الفارِقة للضّاد:

١ - المَخْرَج:

تقدّم الحديث عمّا تضمنّه وصف المتقدّمين للضّاد من خلط بين تعيين مخرج الحرف وصفة الهواء عند إنتاجه.

ولعلّ السَّبيل إلى تحرير الخلاف أن يكون بالجمع بين مقالة سيبويه[٣٤] وشيخه الخليل في شأن هذا الحرف؛ إذ عُنِيَ الشيخ بتعيين المَخْرج وهو شجر الفم، وعُنِي الثاني ببسط القول في صفة إخراجه. وكان لذلك أثرٌ في الخالفين من بعدهما، فَغَلَبَ الحديثُ في صفة إخراج الحرف على الحديث في تعيين مخرجه، بل إن الأول قد سبقَ في أكثر كُتُبِ المتقدّمين على أنه عين الثاني من غير أن يُؤبَه إلى ما بين الجهتين من لطيف الفروق.

وعلى ذلك يجري تعيين مَخْرَج الضّاد في مبحث السمات الفارقة تبعاً للخليل على أنه هو شجر الفم[٣٥] بالبيان السّابق إيراده، أمّا ما عدا ذلك من أوصاف فإن الواجب صرفه إلى صفات إخراج الحرف. وامتيازُ ذلك من هذا هو فَصّ القول في الإبانة عن وجوه اشتجار الخلاف فيه بين المتقدّمين، وأهل العلم في هذا الزمان.

ولعلّ هذه الصورة التي وردت في مفتاح السّكاكي أن تكون دالّة في النّصّ على المَخْرَج والصفة كليهما، وهي صورة ذات مسقط رأسي، وهي لذلك أَبْيَنَ دلالةً من الصورة الجانبية التي تُطالعنا في كُتُبِ المُحَدّثين، فقد تجلّى في صورة المفتاح مَخْرَج الحرف بأنْ جمعت بينه وبين الياء والشين والجيم في موضع واحد، ثم أبرزت بطريقة رسم الضّاد صفة الهواء من الجانبين: الأيمن والأَيْسَر، على الخِلاف في هذا، بياناً لحركة الهواء في مَجراه من الفم، وأن المخرج هو المرحلة الأخيرة التي ينتهي إليها اللّسان بحركته، والهواء بخروجه من الفم.

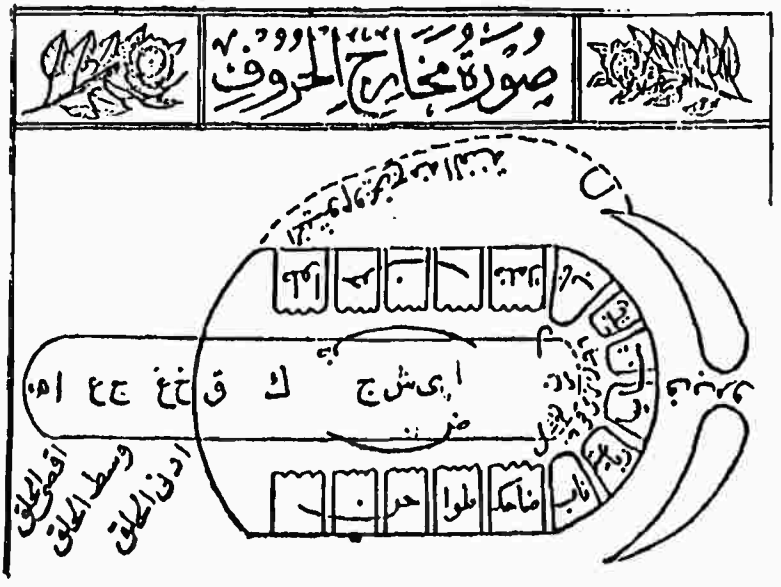

صورة مخارج الحروف كما وردت في المفتاح ص: ٦ طبعة عيسى البابي الحلبي

على أنّ ثَمّة نصاً لابن الجزري «ت: ٨٣٣» أورده في معرض حديثه عن صفة الاستطالة يَصِلُ فيه صوت الضّاد بمخرج اللّام[٣٦]، مخالفاً بذلك عن قول الخليل، ومن هذا ينشأ سؤال: أأصاب مخرج هذا الحرف تغيُّرٌ ما سَجّلته مقالة ابن الجزري؟ رُبّما كان الأمر كذلك، بيد أن صفات الحرف الأخرى بقيت تتردد في مُصنّفات اللّاحقين على ما كانت عليه من قبل.

٢ - الصّفـــات:

أ - الاستعلاء:

يُعَرَّفُ الاستعلاء[٣٧] بأنه تَصَعُّد اللّسان إلى الحَنَك الأعْلى، وهو ارتفاع مُطْلَق سواء انطبق اللّسان أو لَمْ يَنْطَبِق.

قال السُيوطيّ[٣٨]: «وسُمّيت المُستَعلِية؛ لأنّ اللّسان يَعلُو إلى الحَنَك عند النُطق بها، فيُنطَقُ الصّوت مُستَعلِياً بالرّيح».

والأحرف التي يَعلُو بها اللّسان إلى جهة الحَنَك هي أربعة[٣٩] أَحرُف الإطْباق، والغين، والخاء، والقاف. وعلى هذا فهي سبعة أحرف.

ويَستَبين مِمّا سبق أن الاستعلاء صفة جامعة بين نوعين من الحروف:

الأول: حروف لها موضع نُطق واحد، أي: أُحاديّة المَخْرَج، وهي: الغين، والخاء، والقاف، وهو ما يُطلَقُ عليه في بَعْضِ مُصَنّفات الصوتيّات[٤٠] المعاصرة الحروف الطبقية Velar.

الثاني: حروف تُنتَجُ بتظافر مَوْضِعين على إخراجها: الأوّل منهما هو طرف اللّسان، والثاني: ظهر اللّسان ممّا يحاذي الحَنَك الأعلى، ويُطلَقُ عليه في تلك المصنّفات: حروف الإطْباق Velarized، وفيها يكون استعلاء ظهر اللّسان في هذا المَوْضِع حركةً أدائية مصاحبةً لاتصال طَرَفِ اللّسان بِمَخْرَج الحرف.

يقولُ صاحبُ كِتاب «مناهج البحث في اللُغة»: «وقد عَبّر النُحاة والقُرّاءُ الأَقْدَمون عن الطبقية والإطْباق كليهما باصطلاح الاستعلاء، وقصدوا بذلك عُلُوّ مؤخر اللّسان باتّجاه الطَبَق، سواء اتّصل به كما في الطبقيّة أم لم يتّصل به كما في الإطْباق».

وعلى ذلك فإنّ سَلْب صفة الطبقيّة من الصّوت الطبقي ينعدم به الحرف، أما سَلْب صفة الإطْباق من الصّوت المُطْبق فإنه ينتج حرفاً آخر مخرجه من طرف اللّسان. وسترى بيان ذلك في حديثنا عن الإطْباق فيما يأتي.

ب - الإطْبـــاق:

وردت صفة الإطْباق عند سيبويه في قوله[٤١]: «إذا وضعت لِسانَك في مواضعهن [أي أحرف الإطْباق] انْطَبَق لِسانُكَ من مواضعهن إلى ما حاذى الحَنَك الأعلى من اللِّسان، ترفعه إلى الحَنَك، فإذا وضعتَ لسانَك فالصّوت محصورٌ فيما بين اللِّسان والحَنَك إلى موضع الحروف».

ومثلُ هذا عند ابن الحاجب والرضيّ قال[٤٢]: «قوله[٤٣]: المطبقة ما ينطبق معه الحَنَك على اللِّسان؛ لأنّك ترفعُ اللِّسان إليه فيصير الحَنَك كالطَّبَق على اللِّسان، فتكونُ الحروف التي تَخْرُجُ بينها مطبقاً عليها».

وخطورة هذه الصفة تبين لكَ عِلّة المُلازمة بين الضّاد والإطْباق، بيدَ أنّها ملازَمَةٌ تُفارق في طبيعتها نوع الملازمة الحاصل ما بين الإطْباق وسائر حروفه الأخرى سوى الضّاد.

يقول سيبويه في نَصٍّ له مشهور[٤٤]: «لولا الإطْباق لصارت الطّاء دالاً، والصّاد سيناً، والظّاء ذالاً، ولَخَرَجَتِ الضّادُ من الكلام؛ لأنّه ليس شيء من موضعها غيرها».

وجلاء هذا النّص إنّما يكون باعتمادنا على بيان سبقَ أَنْ سُقْناهُ في شأنِ الاستعلاء؛ إذ استظهرنا ثَمّةَ أَنّ أَحرُف الإطْباق التي تكوّن مع الحروف الطبقيّة طائفةَ الحروف المُسْتَعْلِيَة، إنّما تُفارِقُ الحروفَ الطبقية في أنّها تَؤُول إذا ما سُلِبت منها ظاهرة الإطْباق إلى أحرف أُخَر مَخْرَجُها من طَرَفِ اللِّسان. وبهذا يُفْهَمُ قول سيبويه بأيلولة الضّاد إلى سين، والطاء إلى دال، والظاء إلى ذال.

أما المُلازمة بين الضّاد والإطْباق فإنّها ملازمةٌ فريدة؛ إذ هي حرف الإطْباق

الوحيد الذي تتخلّف فيه هذه القاعدة، فلا يَؤُول بسلبِ الإطْباقِ إلى صوتٍ آخر مُعْتَرفُ به في نِظام العربية، أي: إنّ سَلْب الإطباق يُفضي إلى انْعِدام الحَرف، أو إلى خُروجِهِ من الكَلام بِعبارة سيبويه.

وحاصلُ القول أنّ الضّاد يجمَعُها بالأحرف الطبقيّة (الخاء، والغين، والقاف)، وبأحرف الإطْباق (الصّاد، والطّاء، والظّاء)، سِمَاتٌ جامعة، وتنماز من كِلَتا الطّائفتين بِسِماتٍ فارقة، وذلكم هو مظهر الخصوصيّة في علاقة الضّاد بالإطْباق.

ومن هذه الصّفة يتبيَّن لك ما تكرَّر في كلام المتقدّمين من التّنْبيه إلى العناية بِنُطْقِ هذا الحرف، وبصفة الإطْباق على جهة الخُصوص، ومِنْ ثَمَّ كان حُسْنُ إخْراجِه ضامناً لبقائه، وإهمالُ تحقيقِ صفة الإطْباق مُخْرِجاً له من حروف العربية.

جـ ـ الاستطالــة:

يُوصَفُ الضّاد بأنه حرف مستطيل، وذكروا أنّ هذا من فضيلته[٤٥]، والاستطالة هي الامتداد إلى الأمام من خلف. قال ابن الجزري[٤٦]: «والحرف المستطيل هو الضّاد؛ لأنّه استطال عن الفم [كذا] عند النُّطْقِ به حتّى اتصل بمخرج اللّام، وذلك لما فيه من القوة بالجهر والإطْباق والاسْتِعْلاء».

ولا يخرجُ حديث المتقدّمين في بيان الاستطالة عمّا ذكرته هنا عند ابن الجزري. فسيبويه يرى[٤٧]: «أنّها تُخالِطُ مَخرج غيرها بعد خُروجها، فتستطيل حتّى تُخالط حروف المعجم، وابن عصفور[٤٨] يرى أنّ المستطيل هو الضّاد[٤٩]؛ لأنّها استطالت في مَخرجها.

وابن يعيش[٥٠] يرى أنّ الاستطالة التي للضّاد ليست لشيء من حروف العربية، ويذكُرُ أنّ عِلّة هذه الاستطالة في الضّاد عائِدَة لرخاوتها.

وإذا كان الضّاد يشارك غيره في الإطْباق فإنّه ينفردُ هنا بالاستطالة بالإضافة إلى انفراده بمخرج ليس لغيره.

د - الـرَّخاوة:

يُوصَفُ الضّاد بأنّه من الأَخرُف والرِّخوة[٥١]، والحرف الرِّخو هو الذي يجري معه الصوت، إذا وقفت عليه؛ لأنّه لا يشتدّ لزومُه موضعَه. ولهذا قال الرَّضيّ[٥٢]: «والرّخوة ما يجري الصّوت عند النُّطق بها».

وأَبْيَنُ من هذا ما جاء عند ابن عصفور قال[٥٣]: «والرِّخو هو الذي يجري فيه الصوت من غير ترديد لتجافي اللِّسان عن موضع الحرف، ألا ترى أنّكَ تقولُ: المسْ، والرّشْ، والشُّحْ، ونحو ذلك، فتجد الصّوت جارياً مع السّين والشّين والحاء».

ومثل هذا ما جاء عند سيبويه[٥٤]: «وذلك إذا قلت الطَّسّ، وانقضّ، وأشباه ذلك أجريت فيه الصّوت إنْ شئت».

وقوله: «إن شئت» في آخر حديثه يعني أنك تستطيع عند ذَوْق الحرف أن تُطيل أمَدَ النُّطْقِ به ما أَسْعَفَك النَّفَسُ، ولا يكون ذلك للصوت الشديد.

ورَبْط ابن يعيش[٥٥] بين صفتي الاستطالة والرّخاوة على أن الثانية هي علّة الأولى مُخوِج إلى بيان؛ فإنّ ما بينهما ليس علاقة العِلّية بل علاقة التلازُم؛ إذ لا يُعْرَف وقوعُ الاستطالة إلّا من طريق الرّخاوة، (وهي الاحْتِكَاكُ في مُصْطَلح المُحَدّثين)، وإلّا فإنّ الرّخاوة قد تكون، ولا تكون معها الاستطالة.

هـ - الجَهـر:

الضّاد من الحُروف المَجهورة، والحرف المجهور هو حرف أشبع الاعتماد

عليه في موضعه، ومنع النَّفَس أَنْ يَجري معه حتّى يَنْقَضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت.

قال سيبويه[٥٦]: «فالمجهورة[٥٧] حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النَّفَس أَنْ يجري معه حتّى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصّوت، فهذه حال المجهورة في الحَلْق والفَم...».

وقد يَلْتَبِسُ الجَهر بالشّدّة في الوَصْف، ولهذا فَرَّقَ العُلَماءُ بينهما، ومِن ذلك ما ذَكَرهُ السُّيوطيّ، قال[٥٨]: «والفَرْقُ بينَ المَجْهُور والشّديد، أَنَّ المَجْهُور يُقَوّى الاعتماد عليه، والشّديد يُقَوّى لزومه موضعه.

ولابن عصفور[٥٩] والرَّضيّ[٦٠] كلام في التمييز بين الشّدّة والجَهر هو قريبٌ من قَريب.

و - القلقلــة:

في العربية حروف تضغط ضغطاً شديداً، فَلَها أصواتٌ كالحركات تتقلقلُ عند خُروجها، أي: تَضْطَرِبُ، ومن هنا سُمّيت أحرف القلقة، وهي عندهم خمسة أحرف: القاف، والجيم، والطّاء، والدّال، والباء. وجمعوها في قولهم: قطبجدٍ، أو قد طبج.

قال ابن عصفور[٦١]: «فالمتقلقلة... وذلكَ أَنها تُضْغَطُ عن مواضعها وتُخفَزُ في الوَقْف، فلا تستطيعُ الوقفَ عليها إلّا بصوتٍ نَحو: الحقُّ، اُخرُجْ، اِهبِطْ، اِذْهَبْ، امْدُد»

وقال الرَّضيّ[٦٢]: «وحروف القلقة إنّما سُمّيَت حروف القلقة لأنّها يَصْحَبُها ضَغْطُ اللّسان في مخرجها في الوَقْف مع شدّة[٦٣] الصّوت المتصعّد من الصّدْر، وهذا الضّغْطُ التامُّ يمنعُ خروج ذلك الصّوت، فإن أردت بيانها للمخاطب احتجت

إلى قلقلة اللّسان، وتحريكه عن موضعه حتى يخرج صوتها، فيسمع، وبعض الحروف العربية أشدُّ صوتاً، كأنّهم يرومون الحركة في الوَقْف...»[٦٤].

وقال[٦٥] ابن أبي مريم[٦٦]: «... وزعم بعضُهم أنّ الضّاد والزّاي والذّال والظّاء منها؛ لنتوّها، وضغطها في مواضعها، إلّا أنّها وإنْ كانت مُشْرَبةً في المخارج فإنّها غير مضغوطة كضغط الحروف الخمسة التي ذكرناها. لكن يخرج معها عند الوقوف عليها شِبْهُ النفخ».

وظاهر من النصوص السّابقة أنّ القلقلة الاصطلاحية مَنُوطة بأمرين هما: الشّدّة، والجهر، وعلى ذلك يكون ما أدرجته بعض النُّصوص من حروف وصفت بالقلقلة مرّة، وبالنفخة أخرى، وبالإشراب ثالثة، إنّما هو خروج عن المفهوم الاصطلاحي للقلقلة. وإذا صَحّ ذلك لم يكن للضّاد في صُورتها القديمة نصيب من هذا الوصف.

وما ذكرهُ ابن مريم عن بعض المتقدّمين، ساقَهُ مُضَعِّفاً بقوله: «وزعم...».

ويستفاد التضعيف في جعل الضّاد بين حروف القلقلة عند ابن أبي مريم من جهتين:

الأولى: إسناده هذا الزعم إلى البعض.

والثانية: قوله: «وإنْ كانت لا تَبْلغ ضغط الأحرف الخمسة».

وينجَرُّ ذلك إلى ما وُسِمَ بالحروف المشْرَبة.

وأما ما نقله ابن الجزري عن بعضهم[٦٧] من ذكر الهمزة مع المقلقلة، فقد كفانا الردّ؛ إذ ذكر أنّ هذا لم يأخذ به الجمهور، لما يدخلها من التخفيف حالة السُّكون، ولما يعتريها من الإعلال.

وما ذكره عن سيبويه من ذكر التاء مع المقلقلة رَدَّه بقوله: «مع أنّها المهموسة».

وسترى في قابل ما أصاب الضّاد في الأداء القرآني عند المُحَدّثين من تغيير كان أولى أنْ يَلِج بها من أوسع الأبواب إلى حروف القلقلة، غيرَ أنّهُم حاروا في أدائهم بين الوصف الموروث للحرف، وما أصاب صفته من تغير موجب لتغيير الأداء، وكانَ أمرهم عجباً في الجمع بين نقيضين لا يَسُوغ اجتماعهما.

ضاد العربية بين القديم والحديث:

يرى الباحثون ممن عرضوا[٦٨] لهذه المسألة أنّ نُطْقَ الضّاد في عصرنا هذا مُخْتَلِفٌ عن نُطْق الضّاد في القديم، أما في زماننا هذا فإنّ حرفَ الضّاد في بعض البلاد العربية يسمع صوتاً شديداً مجهوراً مطبقاً، وهو النظير المجهور للطّاء، والمُقابل المفخّم للدّال، أي: أنّه يختلف عن الطّاء في تذبذب الأوتار الصوتيّة معه وعدم تذبذبها مع الطّاء.

ويختلفُ عن الدّال في ارتفاع مؤَخّر اللّسان وتقعّره، وذلك ما لا يَحْدُثُ مَعَ الدّال، وعند نُطْق الضّاد في مِصر ينحبِسُ الهواء عند نهاية الْتقاءِ طَرَفِ اللّسان باللّثّة وأُصول الثنايا، وبعد انفصال اللّسان نَسمعُ صوتَ الضّاد الحديثة. كذا في مِصْرَ، أمّا في بعضِ البلاد العربية مثل العراق وبعض أقطار المغرب فهي شبيهة بصوت الظّاء.

قال: «وكِلا النُّطْقَين انحراف عن الأصل». ويُمْكِنُ مُقابلة هذا الخلاف كما يلي: